الباب الثاني

شروط التمكين وأسبابه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: شروط التمكين.

الفصل الثاني: أسبابه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

شروط التمكين

تمهيد

إن الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمناً، وعد من الله تعالى متى ما حقق المسلمون شروطه. ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلى شروط التمكين، ولوازم الاستمرار فيه. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: 55 ـ 56].

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه، والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة، ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ.

obeikandl.com

المبحث الأول

الإيمان بالله والعمل الصالح

لقد بين الله سبحانه لعباده حقيقة الإيمان الذي يقبل الله به الأعمال ويتحقق به وعد الله للمؤمنين.

فمن شروط الاستخلاف في الأرض: تحقيق الإيمان بكل معانيه والالتزام بشروطه والابتعاد عن نواقضه.

وقد فصل القرآن الكريم والسنة النبوية موضوع الإيمان وأركانه وشروطه ولوازمه.

وقد بين علماء أهل السنة في تعاريفهم بيان حقيقة الإيمان فقالوا: إن الإيمان هو التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح والأركان. أي هو: اعتقاد وقول وعمل. فهذه الثلاثة كلها مندرجة فيه وتمثل أجزاء من حقيقته، وقد تواترت أقوال العلماء السابقين ومن بعدهم على هذه الحقيقة، واستدلوا بأدلة كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على صحة هذا القول في حقيقة الإيمان[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ...﴾ [الأنفال: 2 ـ 4].

فقد جمعت هذه الآيات ـ وهي تعرض صفات المؤمنين ـ بين عمل القلب، وعمل الجوارح، واعتبرت هذا كله إيماناً، وقصرت الإيمان عليه بأداة القصر والحصر ﴿إِنَّمَا﴾ وعرَّفت المؤمنين بتلك الصفات مجتمعة، عندما ضمنتها بعبارة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأعمال الجوارح في هذه الصفات هي: إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله.

---

(1) انظر: في ظلال الإيمان للخالدي، ص 23.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: 15]، . فسجود المؤمنين عندما يذكّرون بآيات الله، عبادة عملية بدنية، وتسبيحهم بحمد ربهم عبادة عملية لسانية، رعدم استكبارهم عبادة عملية سلوكية أخلاقية قلبية، وهذه كلها أعمال مندرجة في حقيقة الإيمان.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 277]. فمن حقيقة الإيمان في الآية: عمل الصالحات على عمومها، وخصت اثنتين منها بالذكر وهما: الصلاة والزكاة، واعتبرت أداءهما عملياً من الإيمان.

إن آيات القرآن التي قرنت بين الإيمان وعمل الصالحات واعتبرت الأمرين من حقيقة الإيمان ومن صفات المؤمنين كثيرة، منها قوله تعالى: . ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: 60]

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: 37]

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

هذا وقد أطلق القرآن لفظ: (الإيمان) على العمل في بعض الآيات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]. والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى هذا، بل إن الصحابة فهموا هذا، وتضافرت الروايات عنهم في سبب نزول الآية:

روى إمام المفسرين ابن جرير الطبري بسنده عن قتادة قال: «كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص. صلّت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نهي نبيّ الله ﷺ. وصلّى نبيّ الله ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً... ثم وجهه الله بعد ذلك إلى الكعبة ـ البيت الحرام ـ فقال في ذلك قائلون من الناس: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ لقد اشتاق الرجل إلى مولده: قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142]، . فقال أناس ـ لما صرفت القبلة نحو

البيت الحرام: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ ثم أورد الإمام الطبري إحدى عشرة رواية عن الصحابة والتابعين في أن المراد بالإيمان في الآية الصلاة، وأنها نزلت جواباً على تساؤل لبعض الصحابة عن مصير الصلاة التي صلُّوها إلى بيت المقدس، وتساءل آخرون منهم عن مصير صلاة إخوانهم إلى بيت المقدس الذين ماتوا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة[1].

فمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ على ما تضافرت به الرواية من أنه الصلاة «وما كان الله ليضيع تصديق رسول الله ﷺ بصلاتكم التي صليتموها نحو بيت المقدس عن أمره، لأن ذلك كان منكم تصديقاً لرسولي، واتباعاً لأمري، وطاعة منكم لي»[2].

وقد التفت الإمام الطبري إلى الربط بين الإيمان والصلاة، ولاحظ وجود التصديق في ممارسة الصلاة والتوجه فيها إلى بيت المقدس ثم إلى الكعبة المشرفة. وهذه اللفتة من الطبري لطيفة، وهذا الربط منه رائع، يشير إلى موهبته الفذة في التفسير واللغة وغيرها[3].

ومن الآيات التي أطلقت كلمة الإيمان على الأعمال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: 9].

ذهبت طائفة من المفسرين إلى أن المراد بالإيمان هنا الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا... وقد أورد الإمام الطبري أقوال طائفة من التابعين في هذا المعنى، منها قول ابن جريج: «وقال ابن جريج: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ قال: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك! فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار»[4]، وهناك آيات أخرى أطلقت على الإيمان عبارات أخرى تشير إلى العمل وتتضمنه، أورد الإمام البخاري في صحيحه بعضها:

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: 77]

---

(1) انظر: تفسير الطبري (3/ 167 ـ 169).
(2) المصدر نفسه (3/ 169)
(3) في ظلال الإيمان، ص 26.
(4) تفسير الطبري (15/ 28).

قال البخاري: «دعاؤكم: إيمانكم... ومعنى الدعاء في اللغة: الإيمان».

وجعل ابن عباس ﷺ الدعاء بمعنى الإيمان، قال: «لولا دعاؤكم: إيمانكم»[1].

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]، فالآية اعتبرت هذه الخصال تصديقاً وإيماناً، وجعلت أعمال البر هذه من الإيمان. ووجه الدلالة من الآية مافسره رسول الله ﷺ حيث روى عبدالرزاق[2] وغيره عن أبي ذر الغفاري ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فتلا عليه هذه الآية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ إلى آخرها... والحديث رجاله ثقات[3].

ومن فقه الإمام البخاري وفطنته ـ وهو البصير في الحديث والتفسير ـ أنه جعل هذه الآية وما فيها من خصال البر من أمور الإيمان، وضمن باباً أسماه «باب أمور الإيمان» وقرنها مع الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» التي تتحدث عن صفات المؤمنين، ومع الحديث الذي يقرر أن الإيمان بضع وستون شعبة[4].

ومن هذه الآيات: ثلاث آيات أوردها الإمام البخاري في صحيحه ضمن باب «من قال إن الإيمان هو العمل» وهي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72] قال ابن حجر في الفتح: «وقد نقل جماعة من المفسرين إن قوله هنا تعملون معناه: تؤمنون»[5] والثانية قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: 92 ـ 93]

قال البخاري: «عن لا إله إلا الله»، قال ابن حجر في الشرح: «يدخل فيها المسلم والكافر. فإن الكافر مخاطب بالتوحيد بلا خلاف، بخلاف باقي الأعمال ففيها الخلاف...

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم (1/ 9).

(2) هو الإمام العلامة الحافظ عبدالرزاق بن همام الصنعاني، صاحب المصنف، رحل الأئمة إليه من اليمن وله أوهام مغمورة في سعة علمه، توفي 211 هـ، العبر (283/1).

(3) فتح الباري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (1/ 74).

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) فتح الباري، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل (1/ 109).

فالسؤال عن التوحيد متفق عليه فهذا هو دليل التخصيص، وحمل الآية عليه أولى، بخلاف الحمل على جميع الأعمال لما فيه من الاختلاف»[1].

من هذه الآيات التي أوردناها يتبين لنا: إن الإيمان في القرآن شامل للاعتقاد وللنطق وللعمل، ولابد من القول بهذا اتباعاً للقرآن الكريم، الذي يجب أن تؤخذ منه الأقوال والآراء، وأن يعتمد عليه في الاستدلال والاستنباط، وأن يدخله المتأمل والباحث دون مقررات مسبقة... فما قرره القرآن قبل، وماعرضه أُخذ به، وما قال به لزم المؤمنين القول به... وإليك أخي القارئ طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ التي اعتبرت الإيمان شاملاً للقول والعمل والاعتقاد:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**الإيمانُ بضعٌ وستونَ شُعْبَة... والحياءُ شُعبةٌ مِنَ الإيمانِ**»[2].

وفي رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق... والحياء شعبة من الإيمان....**»[3] والشاهد في الحديث ماذكره رسول الله ﷺ فالشهادة قول وإماطة الأذى عن الطريق عمل، والحياء خلق وسلوك، وجعل الثلاثة من الإيمان دليل على حقيقته، ومعظم شعب الإيمان هي أعمال[4].

وروى البخاري عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[5].

وروى البخاري عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[6].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»[7].

---

(1) المصدر نفسه (1/ 110).
(2) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (1/ 10) رقم 9.
(3) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (1/ 63) رقم 57.
(4) في ظلال الإيمان، ص 30.
(5) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه: .(1/ 11) رقم 13.
(6) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (1/ 11) رقم 14.
(7) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) (1/ 14) رقم 26.

وروى البخاري عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر وفد عبد قيس عندما قدموا عليه بالإيمان بالله وحده. قال: «**هل تدرون ما الإيمان؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمساً من المغنم**»[1].

هذه الأحاديث، وغيرها من الأحاديث، تجعل الإيمان شاملاً للاعتقاد والعمل، وأما أقوال السلف فقد تواترت في بيان حقيقة الإيمان.

قال شارح الطحاوية: «ذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي[2] وإسحاق ابن راهويه[3] وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»[4].

وقال الإمام سهل بن عبدالله التستري[5]: «الإيمان قول وعمل ونية وسنّة...لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر. وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق. وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة»[6].

وقال الإمام عبدالرزاق: سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا سفيان الثوري[7] ومالك ابن أنس وعبيد الله بن عمر والأوزاعي، ومعمر بن راشد[8] وسفيان ابن عيينة[9] يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

---

(1) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (1/ 23) رقم 53.

(2) هو الإمام العابد الحجة الثقة عبدالرحمن بن عمر الأوزاعي الفقيه، روى عن خلق كثير من التابعين، وكان رأساً في العلم والعمل والاتباع، بارعاً في الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة وقيام الليل، توفي في بيروت عام 158 هـ. تهذيب التهذيب (6/ 238)، شذرات الذهب (1/ 341).

(3) هو إمام المشرق إسحاق بن إبراهيم المروزي ثم النيسابوري الحافظ ابن راهويه عالم خراسان والعراق في عصره، توفي سنة 238 هـ. حلية الأولياء (9/ 234).

(4) انظر: الطحاوية، ص 373.

(5) من الزهاد الكبار والعباد المشهورين، اشتهر بالتصوف السني وبالحكم الجميلة.

(6) الإيمان لابن تيمية: ص 163.

(7) هو سفيان بن مسروق شيخ الإسلام من أهل الحديث توفي 161 هـ. سير أعلام النبلاء (7/ 229)

(8) هو معمر ابن راشد أبو عمر البصري من تلاميذ عبد الرزاق الصنعاني، ت 153هـ. ميزان الاعتدال (4/ 154).

(9) هو أبو محمد بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، توفي 198 هـ. تهذيب التهذيب (4/ 117).

وهذا قول ابن مسعود وحذيفة[1] والنخعي[2] والحسن البصري[3] وعطاء[4] وطاووس[5] ومجاهد وعبد الله بن المبارك[6]. . فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح[7].

فهؤلاء مصابيح الهدى وأئمة الدين وعلماء الأمة من أهل الحجاز والعراق والشام وخراسان يرون أن الإيمان قول باللسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان.

وقال الإمام البخاري في كتاب الإيمان في صحيحه: «هو قول وفعل يزيد وينقص والحب في الله والبغض في الله من الإيمان. وقال عمر بن عبد العزيز: إن للإيمان فرائض وشرائع، وحدوداً، وسناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص»[8].

وبهذا يتبين لنا أن مفهوم الإيمان وحقيقته في القرآن والسنة وفي مفهوم السلف: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. قال سيد ـ رحمه الله ـ في ظلاله: «إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط، وبناء، وإنشاء موجه كله إلى الله، لايبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لايبقى معها هوى في النفس، ولاشهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه وسلوكه مع ربه وفي أهله، ومع الناس جميعاً... يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن»[9].

---

(1) حذيفة بن اليمان صحابي جليل، صاحب سر رسول الله ﷺ.
(2) هو إبراهيم بن يزيد النخعي توفي 96 هـ. تهذيب التهذيب (1/ 177).
(3) من سادات التابعين اشتهر بالعلم والعبادة والزهد، توفي 110 هـ بالبصرة.
(4) هو عطاء بن أبي رباح، فقيه أهل الحجاز، أفضل أهل زمانه، توفي 114 هـ. العبر (108/ 1).
(5) طاووس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن، أحد الأعلام علماً وأدباً (ت 106 هـ). العبر (1/ 99).
(6) كان من المجاهدين العاملين، جمعت فيه خصال الخير، توفي 181 هـ. وفيات الأعيان (3/ 32).
(7) انظر: مسلم مع شرح النووي كتاب الإيمان (1: 146، 147).
(8) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبيّ: بني الإسلام على خمس (1/ 9).
(9) في ظلال القرآن (4/ 2528).

لقد تقرر أن الإيمان عند علماء السلف: قول باللسان واعتقاد بالجنان وفعل بالأركان كما أسلفنا.

والقول باللسان هو النطق بشهادة الحق وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ومعناها: لامعبود بحق إلا الله، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولاتمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة «لا إله إلا الله» وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»[2] أما شقها الثاني «محمد رسول الله» فمعناه تجريد متابعته ﷺ فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

ومن هنا كانت «لا إله إلا الله» ولاء وبراء نفياً وإثباتاً.

ولاء لله ولدينه وكتابه وسنّة نبيه وعباده الصالحين، وبراء من كل طاغوت ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]. وبهذه الآية يتضح أن الإنسان لايكون مؤمناً إلا بالكفر بالطاغوت.

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله: قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: 30].

وبراء من حكم الجاهلية: قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

وبراء من كل دين غير دين الإسلام: قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

ثم هي نفي وإثبات تنفي أربعة أمور[3] وتثبت أربعة أمور.

---

(1) انظر: فتح المجيد، ص 36.
(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (28/ 32).
(3) انظر: الولاء والبراء في الإسلام لمحمد سعيد القحطاني، ص 25.

تنفي الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب.

فالآلهة: ماقصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضر، فأنت متخذه إلهاً.

والطواغيت: من عُبد وهو راضٍ، أو رُشِّح للعبادة.

والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل، أو مسكن، أو عشيرة، أو مال فهو ند لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ...﴾ [البقرة: 165].

والأرباب: من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، .

وتثبت أربعة أمور:

1 ـ القصد: وهو كونك ما تقصد إلا الله.

2 ـ والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

3 ـ والخوف والرجاء لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107]

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله ينفي الشرك وتوابعه ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلولات كلمة الإخلاص؛ لأن دلالتها على الدّين كله إما مطابقة[1] وإما تضميناً[2] وإما التزاماً[3]، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

4 ـ والتقوى: أن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي، وإخلاص العبادة لله، واتباع أمره على ماشرعه. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»[4].

لقد تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضاها ولوازمها.

---

(1) دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على معناه.

(2) دلالة التضمين: هي دلالة اللفظ على جزء من معناه.

(3) دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.

(4) انظر: المورد العذب الزلال مجموعة الرسائل النجدية (4/ 99).

قال سفيان بن عيينة: «عندما سأله رجل عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل، قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ماشاء الله، وينقص حتى لايبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده. قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون أن الإيمان قول لا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده، إن الله ﷻ بعث نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا مانفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله جلّ وعلا صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم، أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبنائهم، حتى يقولوا كقولهم، ويصلّوا صلاتهم، ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم، ولا قتالهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبداً، وأن يحلقوا رؤوسهم تذللاً ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا مانفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها، والله لو لم يفعلوا مانفعهم الإقرار الأول ولاصلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتالهم آباءهم ولاطوافهم. فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال ﷻ: قل لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

[المائدة: 3].

قال سفيان الثوري: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها، أدبناه وكان بها عندنا ناقصاً. هكذا السُّنة أبلغها عني من سألك من الناس»[1].

وقد ذكر العلماء رحمهم الله شروطاً سبعة لِـ «لا إله إلا الله» لاتنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط. وإليك شرحها:

---

(1) كتاب الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ص 104.

شروط كلمة التوحيد:

لابد أن تعلم أنه: «ليس المراد من هذا عدّ ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له عدَّها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله، والله المستعان»[1].

وقد قال وهب بن منبه[2] ـ لمن سأله:

«أليس (لا إله إلا الله) مفتاح الجنة؟ ـ قال: بلى. ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك»[3].

وأسنان هذا المفتاح هي شروط «لا إله إلا الله» الآتية:

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل بذلك، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86]، أي بـ «لا إله إلا الله»: «وهم يعلمون» بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[4].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك. ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقناً بمدلولات هذه الكلمة، يقيناً جازماً، فإن الإيمان لايغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[5]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 15] وفي الصحيح من حديث أبي

---

(1) معارج القبول للشيخ الحافظ الحكمي (2/418).

(2) وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، توفي 110 هـ. انظر: تهذيب التهذيب (11/167).

(3) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله (3/ 109).

(4) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (1/ 55) رقم 34.

(5) معارج القبول (2/ 419).

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيهما إلا دخل الجنة**»[1].

الشرط الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قصّ الله عز وجل علينا من أنباء ماقد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه ممن ردّها وأباها.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: 23 ـ 25].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: 47]، .

وفي الحديث الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولاتنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»[2].

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: 54].

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: 125].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان: 22].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: 65].

---

(1) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (1/ 56، 57) رقم 27.

(2) رواه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من عَلِمَ وعَلَّم (1/ 32) رقم 79.

قال ابن كثير في تفسيرها: «يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لايؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً ظاهراً» ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «**والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[1][2].

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 1 ـ 3]، . وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: 8 ـ 10].

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار**»[3].

قال العلامة ابن القيم:

«والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه... فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها»[4].

---

(1) الحديث مروي في الأربعين النووية ص 134، قال فيه النووي: (وهو حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح).

(2) تفسير ابن كثير (1/ 533).

(3) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً (1/ 47) رقم 128.

(4) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، ص 43.

وقال ابن رجب:

أما من قال: لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26][1].

الشرط السادس: الإخلاص، وهو تصفية بصالح النية عن جميع شوائب الشرك[2].

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: 5].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**»، «**أو نفسه**»[3].

وقال الفضيل بن عياض[4] ـ رحمه الله ـ: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنة»[5].

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54].

وفي الحديث الصحيح: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[6].

---

(1) كلمة الإخلاص لابن رجب، ص 28.

(2) معارج القبول (2/ 423).

(3) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (3/ 38) رقم 99.

(4) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود الطالقاني الأصل، الزاهد العابد الثقة الإمام المشهور، كان أول أمره قاطع طرق، ثم تنسك وسمع الحديث بالكوفة، مات سنة 187 هـ. حلية الأولياء (8/ 84)، سير أعلام النبلاء (8/ 421).

(5) مجموع الفتاوى (3/ 421).

(6) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (1/ 11) رقم 16.

وقال الشيخ حافظ الحكمي[1] ـ رحمه الله ـ: «وعلامة حب العبد ربه: تقديم محابّه وإن خالفت هواه، وبغض مايبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله ﷺ، واقتفاء أثره، وقبول هداه»[2].

ويقول ابن القيم في «النونية»:

شرط المحبة أن توافق من تحب ... على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا ... فك ما يحب فأنت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حباً له ماذاك في إمكان
وكذا تعادى جاهداً أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة ... مع خضوع القلب والأركان[3].

وبعد أن بينت حقيقة الإيمان وشروطه التي يتحقق بها التمكين لدين الله، والنصرة على الأعداء يتضح لنا أن الفرد بغير الإيمان الحقيقي بالله، ريشة في مهب الريح، لا تستقر على حال، ولاتسكن إلى قرار، والإنسان بغير الدين الإسلامي يتحول إلى حيوان شره، أو وحش مفترس، لاتستطيع الثقافة الوضعية ولا القانون الجاهلي أن يحدا من شراهته أو يمنعاه من الافتراس.

والمجتمع بغير دين صحيح، وإيمان قوي، مجتمع متوحش مظلم شقي، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة المهترئة وامتلأ بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم الحسي، فهو مجتمع البقاء فيه للأقوى، لا للأفضل والأتقى، مجتمع تقرأ التعاسة والشقاء في وجوه أصحابه، وإن زينوا وجوههم بأنواع الأصباغ والمحسنات، وركبوا الطائرات، وسكنوا العمارات واغتصبوا أعظم الثروات، فهو مجتمع تافه رخيص هزيل؛ لأن غايات أهله غايات ساذجة، سطحية هزيلة لاتتجاوز شهوات البطون والفروج، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: 12].

بخلاف مجتمع الإيمان والإسلام المبني على الحب في الله والرضا بكل ما صدر عن

(1) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي، عالم سلفي من منطقة تهامة ولد سنة 1342 هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان، كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم، تتلمذ على يد الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي، توفي سنة 1377 هـ وعمره 35، انظر ترجمته في مقدمة معارج القبول بقلم ابنه.
(2) معارج القبول، (2/ 424).
(3) النونية، ص 158.

الله ﷻ واهب الحياة ومنشئ الخلق، وصاحب الأمر والنهي المطلق في الوجود كله، وهذا أمر طبيعي، في أن يحب الإنسان ربه، وخالقه ورازقه؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وأي إحسان كإحسان من خلق فقدر وشرع فيسر، وجعل الإنسان في أحسن تقويم، ووعد من أطاعه بجنة الخلد التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر؛ لهذا كله ولأكثر منه، أحب المؤمنون ربهم حباً لايقاس بغيره مما هو دونه، فقدموا أنفسهم وأهليهم وأموالهم في سبيل الله، بلا تردد أو منة، بل اعتبروا ذلك تفضل من الله عليهم، أن فتح لهم باب الجهاد والاستشهاد في سبيله ويسر لهم أسبابه، فقاموا بذلك الواجب خير قيام[1].

إن الإيمان الحقيقي بالله، هو الذي ينبعث منه الحب في الله الذي يحرك إرادة القلب، ويوجهها إلى المحبوبات وترك المحظورات، وكلما ازداد الإيمان بالله في نفس المؤمن كلما ازدادت المحبة في الله لديه قوة وصلابة، وتحول المر حلواً، والكدر صفاء، والألم شفاء، والنصرة جهاداً، والابتلاء رحمة، والإحجام عن نصرة أهل الحق خيانة، وتراجعاً عن الإسلام.

فالحب في الله أخص من الرضا وأعمق أثراً حيث إنه الضمان الوحيد لترابط المجتمع واحترام حقوقه[2] ولذلك ورد في الحديث الشريف: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَ لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[3].

فحقيقة المحبة في الله لاتتم إلا بموافقة الباري جل وعلا في حب ما يحب، وبغض ما يبغض[4].

ولذلك فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم إيماناً من كان أقربهم إلى الله في محبته، وأقواهم في طاعته، وأتمهم عبودية له[5].

وهذه الصفات تستلزم محبة الرسول ﷺ ومحبة ماجاء به من عند الله، ومحبة المؤمنين بهذا الدين، وإيثارهم على النفس بالمال والنصرة والتأييد والانضمام في حزبهم حيث إنهم حزب الله ومن انضم إلى حزب الله فقد أفلح في دنياه وأخراه.

---

(1) انظر: كتاب الإيمان وأثره في الحياة، للدكتور القرضاوي، ص 5 ـ 12.
(2) انظر: الموالاة والمعاداة للجلعود (1/ 245).
(3) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب لايدخل الجنة إلا المؤمنون (1/ 74) رقم 93.
(4) انظر: مجموعة التوحيد، ص 422، 423.
(5) المصدر نفسه، ص 422، 423.

إن الإيمان بالله، والحب في الله، وما يترتب عليهما قواعد متلازمة ينبني بعضها على البعض الآخر، ويتأثر اللاحق منها بالسابق، فإذا قوي الإيمان بالله في نفس المؤمن ازداد الحب في الله، وازدادت الأفعال المترتبة على ذلك، حتى تصبح الجماعة المسلمة، كخلايا الدم في الجسم تعمل لغرض واحد، وهدف واحد، وفي إطار واحد، عند ذلك تصبح الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة قادرة على أداء رسالتها ودورها العظيم في حق نفسها، وفي حق البشرية جمعاء[1].

ولذلك جعل الله تعالى رابطة الدين والإيمان فوق كل الروابط الجاهلية الفاسدة مثل رابطة الدم، ورابطة اللون أو اللغة، أو رابطة الوطن أو الإقليم أو رابطة الحرفة، أو الطبقة، أو غير ذلك من الروابط الجاهلية التي تختلف اختلافاً جذرياً مع أصول الإسلام ومنطلقاته في الموالاة والمعاداة والحب والبغض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] فالمقياس لتفاوت الأفراد في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، وهذا المبدأ يحقق العدل بالنسبة لكافة المنتمين إليه ويسع العالم أجمع دون أي تمييز بينهم فيما عدا التقوى والعمل الصالح[2].

إن الإيمان الحقيقي يجعل من أتباعه إخوة متحابين يعملون على رضى مولاهم العظيم، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

إن الفهم الصحيح لحقيقة الإيمان وكلمة التوحيد لها آثار في حياة الإنسان: وتلك الآثار لها أثر في التمكين فمن أهم هذه الآثار:

1 ـ ماتنشئه في النفس من الأنفة وعزة النفس بحيث لا تقوم دونه شيء؛ لأنه لا نافع إلا الله، وهو المحيي والمميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة. ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولايتضرع إليه، ولايتكفف له، ولايرتاع من كبريائه وعظمته؛ لأن الله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر.

(1) انظر: الموالاة والمعاداة (1/ 246).
(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

2 ـ ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة من أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل، وترفع من غير كبر، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته، لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ماعنده قادر على سلبه إياه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

3 ـ المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لاسبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح.

4 ـ من آثار الإيمان الصحيح عدم تسرب اليأس، والبعد عن القنوط، لأنه يؤمن أن الملك والخزائن لله رب العالمين، لذلك فهو على طمانينة وسكينة، وأمل، حتى ولو طرد العبد أو أهين وضاقت عليه سبل العيش.

5 ـ من آثار كلمة الإيمان والتوحيد في نفس العبد: إعطاء قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع إلى معالي الأمور ابتغاء مرضاة الله تعالى مع شعوره أن وراءه قوة مالك السماء والأرض. فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدها من هذا التصور كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟

6 ـ من آثار الإيمان الحقيقي تشجيع الإنسان وامتلاء قلبه جرأة، لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله يرفع عن قلبه كلاً من هذين السببين، فيجعله موقناً بأن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده. وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لايقدر على سلب الحياة منه إنسان ولاحيوان ولا قنبلة ولا مدفع، ولاسيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده. من أجل ذلك لايكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاص والقنابل.

7 ـ ومن ثمار الإيمان الصحيح: التحلي بالأخلاق الرفيعة، والتطهر من الأخلاق الوضيعة.

8 ـ ومن ثمار الإيمان جعل العبد حريصاً على التمسك بشرع الله تعالى ومحافظاً عليه..

9 ـ ومن ثمار الإيمان تربية العبد على أن يكون جندياً من جنود الدعوة التي تسعى لتحكيم شرع الله، وتمكين دينه سبحانه وتعالى.

إن من شروط التمكين لدين الله تعالى في الأرض تحقيق الإيمان الذي يريده الله وبينه رسوله ﷺ وتجسد في حياة أصحابه.

إن الإيمان المطلوب هو الذي يبعثنا على الحركة والهمة، والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة، والثبات واليقين[1].

يقول الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ مفرقاً بين إيمان خامل وإيمان عامل، إيمان المسلم القاعد وإيمان المسلم الداعية: تحت عنوان «إيمانان»:

«والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان بهذا المبدأ، أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم، لايريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه... على أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين... ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين: أن نؤمن بالفكرة إيماناً يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبل وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا، حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع، نسي كل إيمانه وغفل عن فكرته، فهو لايفكر في العمل لها، ولايحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها، بل قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان، حتى يعمل على ضدها وهو يشعر أو لا يشعر... أو لست تضحك عجباً حين ترى رجلاً من رجال الفكر والعمل، والثقافة في ساعتين اثنتين متجاورتين من ساعات النهار: ملحداً من الملحدين، وعابداً مع العابدين»[2].

إن الإيمان الذي جاء به القرآن الكريم وبيّنه سيد الخلق أجمعين عليه أفضل الصلاة والتسليم ليس إيماناً مجرداً حبيس دائرة الذهن والتصور، بل هو تصديق يتبعه عمل، وإقرار يتبعه التزام، واعتقاد يتبعه خضوع.

فحقيقة الإيمان في القرآن الكريم يدفع العبد المؤمن إلى جهاد ودعوة، والتزام وحركة، وتواصٍ بالحق وثبات عليه، وتواصٍ بالصبر وحث عليه[3].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «والعمل الصالح هو الثمرة الطيبة للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة

(1) انظر: في ظلال الإيمان، ص 63.
(2) رسائل حسن البنا، ص 16.
(3) انظر: في ظلال الإيمان، ص 64.

عمل صالح... هذا هو الإيمان الإسلامي... لايمكن أن يظل خامداً لايتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً، وإلا فهو غير موجود.

ومن هنا قيمة الإيمان... إنه حركة وعمل وبناء وتعمير... يتجه إلى الله... إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير... وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة كبرى في صميم الحياة»[1].

والإيمان ـ يعد ـ قوة دافعة وطاقة مجمعة، فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل، ولتحقق ذاتها في الواقع، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة، كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها، وتدفعها في الطريق.

«ذلك سر قوة العقيدة في النفس، وسر قوة النفس بالعقيدة. سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض، وما تزال في كل يوم تصنعها الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم، وتدفع بالفرد، وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن. وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح، والينبوع المتفجر الذي لاينضب ولاينحسر ولايضعف»[2].

«تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة، ولاتعتمد على التهويل والرؤى. إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة. إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخصبة، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة، بقوة اليقين في النصر، وقوة الثقة في الله، وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه، وتجمع طاقاته وقواه كلها، وتدفعها في اتجاه. ومن هنا كذلك قوتها. قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد، وتوجيهها في اتجاه واحد، تمضي إليه مستنيرة الهدف، في قوة، وفي ثقة وفي يقين.

ويضاعف قوتها أنها تمضي مع الخط الثابت الذي يمضي فيه الكون كله ظاهرة وخافية.

---

(1) في ظلال القرآن (6/ 3966، 3967).

(2) في ظلال القرآن (6/ 3353).

وأن كل ما في الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاهاً إيمانياً، فيلتقي المؤمن في طريقه، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها في العيون بريق»[1].

وبهذا لعلي أكون قد أوضحت حقيقة الإيمان التي نسعى لإيجادها في أفراد الأمة والجماعة المسلمة لنقطع خطوة نحو التمكين المنشود.

(1) في ظلال القرآن (6/ 3353).

obeikandl.com

المبحث الثاني
تحقيق العبادة

أولاً: معنى العبادة في اللغة والشرع:

أ ـ في اللغة: العبادة، والعبدية، والعبودية: الطاعة[1].

وفي لسان العرب: أصل العبودية: الخضوع والتذلل.

والتعبد: التنسك، والعبادة: الطاعة.

والتعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل.

بعير معبد مذلل، وطريق معبد، مسلوك مذلل[2].

ويرى أبو الأعلى المودودي في معنى العبادة استناداً إلى الاستعمال اللغوي لمادة (ع ب د) إن أصل معنى العبادة هو الإذعان الكلي، والخضوع الكامل والطاعة المطلقة[3].

ب ـ العبادة في الشرع: خضوع وحب[4]، والعبادة المأمور بها العبد تتضمن معنى الذل والخضوع لله، ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له[5].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والإله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب والعبودية والإجلال والإكرام، والخوف، والرجاء...»[6].

---

(1) القاموس المحيط كتاب (الدال)، فصل (العين)، ص: 378.
(2) لسان العرب، كتاب (الدال)، فصل (العين): 3/ 271.
(3) المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي، ص 97.
(4) العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص 31.
(5) انظر: مجموع الفتاوى (1/ 207).
(6) مجموع الفتاوى (28/ 35).

obeikandl.com

وينص ابن القيم ـ رحمه الله ـ على أن «العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع»[1] ودعائم هذه العبادة التي تنتظم أعمال الإنسان كلها القلبية، والعملية الفردية والجماعية: المحبة والخوف والرجاء، وقد جعل ابن القيم هذه الثلاث في قلب المؤمن: «بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[2] وبهذا يتضح مفهوم العبادة في الشرع.

ثانياً: حقيقة العبادة:

إن من شروط التمكين لدين الله تحقيق العبادة لله في دنيا الناس، وعلى الجماعة المسلمة أن تفهم حقيقة العبادة في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم وأن تعمل على نشر المفهوم الصحيح لمعنى العبادة في شرايين الأمة حتى تخرج من الأوهام والمغالطات، والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

لقد ساد بين الناس مفاهيم خاطئة للعبادة، صرفت عقولهم وقلوبهم وأعمالهم عن هذه الوظيفة التشريفية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وسخر له كل شيء في نفسه وفي الكون من حوله، ليقوم بها وفق أمر خالقه. وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار، وأوامر، ونواه ووعد ووعيد، نجدها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى، وعبودية الإنسان له.

فإذا كان خلق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري ـ جلَّ وعلا ـ من كونه في ذاته وأفعاله سبحانه وتعالى حكيماً عليماً، خلق كل شيء فقدره تقديراً، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة، وإذا كان القرآن المجيد، وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه فكيف يصح حينئذ أن يتصور أن العبادة هي النية النقية وحسب، أو أنها الشعائر التعبدية فقط، أو أنها لبعض نشاطات الإنسان دون بعض، أو لبعض أفعاله وأحواله دون بعض؟

بل إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في

(1) مدارج السالكين (1/ 74).
(2) المصدر نفسه (1/ 517).

الأرض، دائرة رحبة واسعة: إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله[1] وبهذا المعنى الشامل، فهم السلف الصالح عبادة الإنسان فرداً كان أو جماعة، وقد لخص هذا المعنى الشامل للعبادة وحدَّد ماهيتها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حين قال: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك: هي من العبادة لله...»[2].

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء كان ذلك في العبادات المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها.

أما في العبادات والمعاملات المشروعة فإنها مما يحبه الله ويرضاه، وهذا أمره الشرعي الدائر بين الأحكام الخمسة التي اصطلح عليها الفقهاء وهي: «الواجب، والمحرم، والمستحب، والمكروه، والمباح» أما في العادات فالذي لم يجر منها بأوامر الشرع، ولم يتقيد بأحكامه على وجه الخصوص، فإنه لا يخرج عن كونه داخلاً تحت عمومات الشرع باعتبار عبودية الإنسان في كل أحواله لله سبحانه وباعتبار أن «العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، أو فيما يكرهه؛ فلهذا أيضاً جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين في أقوالهم وأعمالهم وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة»[3].

وإن كان ينبغي لنا هنا الإشارة إلى أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيتها، وإن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبنى على «أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله، أو أحبها لا

(1) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص 53.
(2) مجموع الفتاوى (10/ 150).
(3) مجموع الفتاوى (29/ 116 ـ 117).

يثبت الأمر بها إلا بالشرع، وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيها عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لابد أن يكون مأموراً بها، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟!

وما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه، كيف يحكم عليه أنه محظور؟ والعادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرم»[1].

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف في درجته ما بين عبادة محضة وعادة مشوبة بالعبادة، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة أو تكميلاً لشيء منهما[2].

وقال النووي في شرحه لحديث: «**في بضع أحدكم صدقة**»[3]: «وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة»[4].

ومن ذلك يتضح: «إن الدين كله داخل في العبادة، والدين منهاج الله جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

إن الشعائر التعبدية من صلاة، وصوم، وزكاة، لها أهميتها ومكانتها ولكنها ليست العبادة كلها بل هي جزء من العبادة التي يريدها الله تعالى.

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان، أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، يفعل ذلك طاعة لله واستسلاماً لأمره...»[5].

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة، من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضوان الله

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 399).
(2) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (1/ 19).
(3) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (1/ 697).
(4) مسلم مع شرح النووي، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة (7/ 97).
(5) مقاصد المكلفين، د. عمر الأشقر، ص 46، 47.

عليهم: فأما من القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 162 ـ 163]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

ومن السُّنة أحاديث كثيرة بعضها في عموم العادات بدون تخصيص وبعضها الآخر في أفراد السلوك العادي، وفي هذا الأخير دليل وتشبيه على المعنى العام المقصود إثباته هنا، فمن ذلك:

قوله ﷺ: «**إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها كانت له صدقة**»[1].

وقوله ﷺ: «**كل ما صنعت إلى أهلك فهو صدقة عليهم**»[2] وقوله ﷺ: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على المسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك**»[3] وقال ﷺ: «**في كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»[4].

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل السلف وفهمهم ففيما روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة[5] في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن. وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: «فكيف تقرأ أنت يامعاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»[6]، وفي كلام معاذ رضي الله عنه، دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل

(1) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنيات (1/ 24) رقم (55).
(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (3/ 22).
(3) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب النفقة على العيال والمملوك (1/ 191).
(4) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب من أخذ بالركاب ونحوه (3/ 6، 132 فتح) رقم 2989.
(5) هو التابعي الثقة أبو بردة حارث، وقيل: عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، ثقة كثير الحديث، تولى قضاء الكوفة للحجاج، ثم عزله. ت 107 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (4/ 343).
(6) البخاري، كتاب المغازي، باب بعثة أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (5/ 156) رقم 42، 43.

على شؤون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله تعالى ملتزماً بالشروط الآتية:

1 ـ أن يكون العمل مشروعاً في نظر الإسلام: أما الأعمال التي ينكرها الدين فلا تكون عبادة بأي حال من الأحوال. قال الرسول ﷺ: «... **إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً...**»[1].

2 ـ أن تصحبه النية الصالحة: فينوي المسلم إعفاف نفسه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض ـ كما أمره الله رب العالمين.

3 ـ أن يؤدي العمل بإتقان وإحسان: قال النبيّ ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء...**»[2].

4 ـ أن يلتزم في عمله حدود الله تعالى: فلا يظلم، ولايخون، ولايغش، ولايجور.

5 ـ ألا يشغله عمله لمعاشه عن واجباته الدينية[3]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين انحرافهم في تصور مفهوم معنى العبادة... وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لايستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة، والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب[4].

إن من شروط التمكين أن يكون مفهوم العبادة في حس الجيل، إن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

لقد كان الجيل الأول لهذه الأمة يفهم الحياة كلها على أنها عبادة تشمل الصلاة والنسك، وتشمل العمل كله، وتشمل لحظة الترويح كذلك، فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من

---

(1) مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (2/ 703).
(2) مسلم مع شرح النووي، كتاب الصيد، باب الأمر بإحسان الذبح (13/ 106).
(3) انظر: العبادة في الإسلام للدكتور القرضاوي، ص 62، 63.
(4) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب، ص 173.

دائرة العبادة... وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة. كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها[1].

وبهذا الفهم العميق لمفهوم العبادة حققت تلك الأمة في سالف عهدها ما حققته من منجزات في كل اتجاه، فحين كانت تمارس الأمة إيمانها الحق، وعبادتها الحقة. وكانت الأخلاق في حسها جزءاً من العبادة المفروضة على المسلم، حدثت إنجازات هائلة لم تتكرر في التاريخ. ففي أقل من نصف قرن امتد الفتح الإسلامي من الهند شرقاً إلى المحيط غرباً وهي سرعة مذهلة لا مثيل لها في التاريخ كله. ولم يكن الكسب هو الأرض التي فتحت، وإنما كان الكسب الأعظم هو القلوب التي اهتدت بنور الله فدخلت في دين الله أفواجاً[2].

وما كانت تلك الأمة لتقدر على دك حصون الشرك، واقتلاعها بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه السرعة، وما كانت لتقدر على إبراز تلك المثل الرفيعة التي أبرزتها في عالم الواقع، من إقامة العدل الرباني في الأرض ونظافة التعامل، والوفاء بالمواثيق، وشجاعة النفس، والبطولة الفذة في ميدان الحرب والسلم سواء. وما كانت لتقدر على إنشاء حركتها العلمية الضخمة، ولا حركتها الحضارية السامقة... ماكانت لتقدر على ذلك كله، ولا على شيء منه، لولا هذا الإحساس العميق لديها بأنها في ذلك كله تقوم بالعبادة التي خلق الله الإنسان من أجلها وتقوم به بذات الحس الذي تؤدى به الصلاة[3].

هكذا كانت العبادة تصوراً وفهماً وعملاً عند الأجيال المسلمة الأولى[4] ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها: تصحيح المفاهيم أولاً، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم الصحيحة للإسلام[5].

إن قضية العبادة ليست قضية شعائر، وإنما هي قضية دينونة، واتباع... وإنها لذلك استحقت كل هذه الرسل والرسالات، وكل هذا الاهتمام[6].

وحتى تستحق الأمة الإسلامية اليوم وعد الله بالتمكين، فإن عليها أن تصوغ حياتها كلها صياغة جديدة على منهج الله رب العالمين، لتصبح كلها عبادة من لحظة التكليف إلى لحظة

(1) مفاهيم ينبغي أن تصحَّح، ص 203، 204.
(2) المصدر نفسه، ص 222.
(3) المصدر نفسه، ص 192.
(4) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 59.
(5) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص 250، 251.
(6) انظر: في ظلال القرآن (4/ 1943).

الموت، لاتندُّ عنها لحظة واحدة من لحظات الوعي، ولا لمحة، ولا خاطر، ولا لون من ألوان النشاط[1]، امتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]. إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط التمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح.

ثالثاً: أهمية الجانب العبادي في حياة الإنسان:

إن العبادات التي سنها الله لنا ذات تأثير شمولي مشرق، ولها أخطر المهمات في تمكين الحقائق العليا للرسالات الإلهية، وتحقيق الفطرة الإنسانية على وجهها الصحيح المستقيم، طالما تمثلت فيها عناصر الحب والذل، والرجاء والخوف، ونحوها، ومعلوم لدى العلماء أن للعبادة مقصداً أصلياً، وهو التوجه إلى الواحد الصمد، وإفراده بالعبادة في كل حال، طلباً لرضى الله، والفوز بالدرجات العلى، وهناك مقاصد تابعة للعبادة، صلاح النفس واكتساب الفضيلة فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله تعالى، وإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصَّغار بين يديه، وتذكير النفس بذكره، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]، وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]، يعني أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله هو المقصود الأصلي، ثم إن لها مقاصد تابعة كالاستراحة إليها من أنكاد الدنيا وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية وهي الانقياد والخضوع لله[2].

وإذا تأملنا في مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص الآتي:

1 ـ تثبيت الاعتقاد:

إن روح العبادة هو إشراب القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائماً بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهراً عملياً دائباً لصدق الإنسان في دعوى الإيمان، وتذكيراً مستمراً بسلطان الإله الأعلى، وإلهاباً متجدداً لجذوة اليقين في الله، ورجاء فضله وثوابه.

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 59.

(2) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص 48، 49.

ولنأخذ مثالاً عبادياً لتثبيت معنى التوحيد، وإجلال الله تعالى، وهو (الأذان) وقد شرع للإعلام بدخول أوقات الصلاة المفروضة، فهو يتكرر في اليوم والليلة خمس مرات، وينادي به منادي المسلمين صوتاً في كل مكان يوجد به تجمع إسلامي، ولو كان أدنى الجمع من المسلمين، بل شرع مع ذلك للمسافر، والمنفرد، ولو كان في بادية لما يمثله من معان عظيمة ليست مجرد الإعلام بدخول الوقت.

إن المؤذن حين ينادي بصوته الأعلى: «الله أكبر الله أكبر» ثم يكررها، يطلب شرعاً أن يردده معه كل مسلم ومسلمة حين يسمعون هذا القول الأجل، لينسكب في مشاعر الجميع وفي أوقات متكررة متقاربة، معنى الكبرياء المطلق لله رب العالمين، وأنه تعالى فوق كل شيء وأكبر من كل شيء، فينبغي أن يعتز به وحده، ويلوذ بحماه وكنفه، ويستعلي فوق أعناق الطواغيت والجبارين بهذا النداء الجهير، الذي أراد الله ﷻ أن يتواطأ عليه المجتمع كله، وأن يظل حتى المنفرد على صلة دائمة به.

فإذا تقرر هذا المعنى عاد النداء الأجل ليملأ الآفاق: (أشهد أن لا إله إلا الله) وهو تذكير يومي بالعهد والميثاق الذي أعطاه العبد لربه بأن لايعبد ولايطيع إلا ربه الأكبر، المنفرد بالكبرياء في السموات والأرض.

ثم يأتي الشق الثاني من الشهادة: «أشهد أن محمداً رسول الله» وهو كما علمت إقرار متكرر أيضاً بالطريق الذي تؤخذ عنه العبادة المشروعة. والتي لا تصح إلا بالتلقي عن الوحي الإلهي الذي جاء به المعصوم ﷺ.

ثم يأتي رابعاً: الدعوة إلى الصلاة نفسها في جملتين فقط: «حي على الصلاة، حي على الصلاة» لأن الأذان كما قلنا أبعد مدى، وأشمل آثاراً.

ثم يأتي خامساً: الدعوة العامة إلى الصلاح المطلق، المتمثل في الاستجابة لهذا الدين الإلهي الأغر، ومثله وتعاليمه، وفي مقدمتها الصلاة بداهة[1].

ولذلك يعود الشارع بالمؤذن إلى نقطة البدء ليكبر في الختام للتأكيد على تفرده تعالى بالكبرياء، وإعلان التوحيد بصيغة الإقرار والإثبات بعد صيغة الشهادة السابقة «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله» معنى هذا أن الأذان وحده يجري على ألسنة المؤمنين، ويسكب في ضمائرهم، ويغرس في حياتهم ووجدانهم إفراد الله تعالى بالكبرياء ثلاثين مرة يومياً، وإفراده

(1) وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع، ص 40.

تعالى بصفة الألوهية التي تفرده بالعبادة والطاعة «خمس عشرة» مرة، وهو نداء لايتقيد بحدود معبد، أو مسجد، وإنما ينطلق ليدخل كل بيت، ويصافح كل سمع، ويطرق كل قلب يريد الهدى.

وإذا كان هذا هدف الوسيلة في تقرير الأصول العليا فإن القصد الذي تؤدي إليه وهي «الصلاة» أعظم شاناً، وأتم مظهراً، فقد فرضها الله على كل بالغ من الذكور والإناث خمس مرات في اليوم والليلة، وهو يبدأ بالتكبير ويطالب المصلي بتكرار هذه الجملة «الله أكبر» في صلوات الفرض فقط «أربعاً وتسعين مرة». . عدا ما يقرع سمعه بعددها من صلوات إمامه إذا صلى جماعة، فضلاً عن السنن الراتبة والنوافل المطلقة وهي أضعاف ذلك.

ثم إن العبد يتلو كتاب ربه في صلاته، ويحني له ظهره راكعاً، ويخر بجبهته ساجداً، ويناجي مولاه معظماً، ومسبحاً، وحامداً، وداعياً، وليس هناك في الوجود أسمى وأجل من هذه الشعيرة في ربط العبد بهذا السلطان الإلهي، وإلهاب نفسه بمعاني عظمته وسموه[1].

إن الصلاة ـ عندما تؤخذ على وجهها الصحيح ـ واحة وراحة يسكن إلى ظلها المؤمن كلما مسه تعب الحياة ولغوبها. وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: 19 ـ 23].

2 ـ تثبيت القيم الأخلاقية:

فقد جاء المنهاج الرباني في العبادة ليتمم مكارم الأخلاق، ويدعو الناس إلى المثل العليا، والفضائل الكريمة كالصبر، والمثابرة، والسماحة، والسخاء، والصدق، والتي تحقق للإنسان سعادته في الدنيا فضلاً عن الآخرة، وللعبادات بأنواعها مهمة عظيمة في تثبيت هذه الأخلاق، وتدعيمها، وغرسها في نفس المؤمن ووجدانه، «فالصلاة» مثلاً تعوّد المؤمن الصبر، والدأب، والإخلاص والنظام، حتى تصبح جميعاً خلقاً راسخاً في النفس، فالمسلم النائم حين يقوم من لذة النوم على نداء المؤذن «الصلاة خير من النوم»، وكذلك حين ينسحب من ضجيج الأسواق والبيع والشراء ملبياً لنداء «حي على الصلاة»، ثم لايزال دأبه هكذا عبر الساعات، والأيام، والأعوام، فهذا وأمثاله لابد أن تتربى فيهم هذه المعاني الخلقية العالية[2].

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 458.
(2) وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع، ص 42.

و«الزكاة» التي أخذت من معنى الزيادة، والنماء، والتطهير، لها - هي الأخرى - أكبر الأثر في تنقية الخلق أمام هواتف الشح والبخل والإمساك، وفي طبعه بطبائع البذل، والعطاء، والسخاء، كذلك تستل السخيمة من صدور المحتاجين، وتبدل به شيئاً من خلق الحب، والمودة، أو على الأقل سلامة الصدور، فتشيع في المجتمع تبعاً لذلك كل علائق التداني والتقارب، وتتداخل صلات الناس بمشاعر الألفة، وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: 103].

و«الصوم» له عمله الأساسي في تربية الإرادة الإنسانية، والضمير الحي اليقظ الذي يتعامل على أساس من رقابة الله تعالى له، واطلاعه عليه، فضلاً عن غرس خليقة الصبر، والضبط النفسي بالإمساك الطويل عن شهوتي البطن والفرج، وبالكف عن اللغو، والصخب، والقدرة على تغيير عاداته حتى لايتعود الجمود، أو تستعبده عاداته وتقاليده[1].

ثالثاً: إصلاح الجانب الاجتماعي:

ويظهر ذلك في الصلاة ودورها في إيجاد العلاقات الاجتماعية وذلك واضح في الحكمة من صلاة الجماعة، لأن لاجتماع المسلمين راغبين في الله راجين، راهبين، مسلمين وجوههم إليه خاصية عجيبة في نزول البركات، وتدلي الرحمة فيحدث التعاون، والتعارف، والوحدة والاجتماع على الخير.

ثم تأتي صلاة الجمعة: فتجمع أهل الحي على هيئة جامعة أكثر من ذلك في كل يوم جمعة، حيث شرع الله لنا خطبتها تذكيراً وتعليماً للمسلمين بما يصلح دينهم ودنياهم، كحد أدنى للتثقيف العام في أمور الدين، ثم تأتي صلاة العيد، فتجمع أهل المدينة كلها مرتين في السنة في عيد الفطر والأضحى، يخرجن الأبكار والعواتق[2]، بل والحيّض يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى كما جاء في الحديث الصحيح الذي ترويه أم عطية رضي الله عنها[3] قالت: أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور[4][5].

هذا عدا ما شرعه الله تعالى لنا من صلوات جامعة في مناسبات شتى، كالاستسقاء

---

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 460.
(2) العواتق: جمع عاتقة، وهي التي عتقت من الخدمة أو من قهر أبويها.
(3) هي نسيبة بنت الحارث، وقيل: بنت كعب من فقهاء الصحابة ت 70 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (318/ 2).
(4) ذوات الخدور: الستور.
(5) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيّض إلى المصلى (2/ 9).

والخسوف والكسوف والجنائز، والتراويح في رمضان. إن الصلاة ـ لو وعى المسلمون حقيقتها ـ لهي توجيه وتنظيم اجتماعي كامل، يتمثل فيه المجتمع الكبير، وبقدر ما يحسن المسلمون هذه الصلاة، وما تعنيه من معان وتوجيهات، بقدر مايرجى لهم إحسان الحياة في اجتماعاتهم، ولا فرق في هذا المنهاج بين المسجد والمجتمع، فكلاهما تجمع يجب أن يخضع لدين الله وتعاليمه[1].

أما الزكاة: في حقيقتها واجب مالي يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء، وذوي الحاجة من الغارمين والأرقاء وغيره، وهي بذلك تمثل الحد الأدنى المفروض فرضاً للتعاون الاجتماعي، والتكافل الاقتصادي بين أبناء الأمة الواحدة؛ لذلك جعل الله تعالى معظم مصارفها اجتماعية بحتة، بأوسع المدلولات الاجتماعية في القديم أو الحديث على السواء، وكما جاءت صلاة العيد لتوسع دائرة الاجتماع في الصلاة، تأتي هنا أيضاً «زكاة الفطر» لتوسع قاعدة التكافل والتعاون إلى أقصى حد.

أما الأثر الاجتماعي لفريضة «الحج» فواسع شامل، ولازالت آثاره تظهر كل يوم بجديد من حكمة الله تعالى في تشريعه، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من ذلك. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198].

روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في موسم الحج، فسألوا رسول الله فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة 198][2] وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: 27 ـ 28].

والمنافع المشهودة كلمة جامعة، تشمل المنافع الروحية، والمادية والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية وسائر مايطلق عليه اسم «المنفعة» وقد جعلت غاية من غايات الحج وتقديمها على ذكر الله تعالى، إيذاناً ببالغ أهميتها في مراتب المنافع والحكم الشرعية، وإن من أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل عام، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنوياً ليركبوا الأخطار والأسفار، ويقطعوا السهول والقفار، أو

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 462.

(2) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ليس عليكم جناح (5/ 186) رقم 4519.

يمتطوا الأجواء والبحار، ويتركوا الأولاد والأهل والديار فيجتمع المسلمون من أطراف الأرض، ويلتقي المشرقي المغربي، والمصري والهندي، في مؤتمر جامع، ورحلة مباركة، وليحققوا عملياً دعوة القرآن بالسير في الأرض، والسياحة في الآفاق، ومطالعة المشاهد المقدسة، ومنازل الوحي، وآثار النبوة منذ أبي الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد ﷺ، ثم مدارج الصحابة رضوان الله عليهم، التي تهب على المسلمين منها روح الإخلاص، والبذل، والعطاء والانقياد المطلق لأمر الله ﷻ [1].

ومن ناحية أخرى فالحج نظام يوجب على الجميع زياً واحداً، وحركة واحدة، وكلمة واحدة، وطاعة واحدة وبتثبيت الاعتقاد، والأخلاق وإصلاح الاجتماع تأخذ العبادات الإسلامية ودورها العظيم في بناء الحياة الإنسانية على أرفع القواعد، وأنبل الغايات، وأكرمها وأطهرها، وتأخذ بالإنسان إلى أفق أرفع من التراب والطين، ومتاع الحياة الفانية، حيث تربطه بالحي الباقي، وبالنعيم الخالد، فهي غسيل مستمر لأدران المادة، وتهذيب لطغيانها، وعبدات الإسلام تقوم في أساسها على مراعاة الرقابة الإلهية، وابتغاء الآخرة، دون واسطة بين العبد وربه في العبادات كلها، وتحرير الإنسان من عبودية الكهنوت وطقوسها ورسومها[2].

إن القرآن الكريم اهتم اهتماماً بالغاً لبيان حقيقة العبودية ودعوة الناس إلى تحقيقها كما ينبغي. كما بين شروط قبول العبادة، وأمر المسلمين بالالتزام بها، ووجه الناس إلى مفاهيم أصيلة في العبودية وحذرهم من الشرك، ومن الانحراف عن معنى العبودية الصحيح، كما أشار إلى أهمية الجانب العبادي في حياة الناس في تثبيت الاعتقاد، وتأسيس القيم والأخلاق وزرعها وغرسها في نفوس المؤمنين، كما اهتم ببيان الجانب العبادي في إصلاح النواحي الاجتماعية، وركز القرآن في توجيهاته الكريمة في مجال العبادة على إفراد الله وحده في العبادة وتحرير العبادة من رق الكهنوت، واهتم بمسألة التوازن بين الروح والجسد، وفتح مجال الرخص والتخفيضات في العبادة، هذا كله من أجل أن تحقق الأمة عبوديتها لخالقها سبحانه وتعالى من أيسر الطرق وأسهل السبل وأخف التكاليف وجعل طريق تحقيق العبودية شرطاً من شروط التمكين بهذه الأمة العظيمة.

إن تقرير حقيقة العبودية في حياة الناس يصحح تصوراتهم ومشاعرهم، كما يصحح

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 465.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص 468.

حياتهم وأوضاعهم، فلا يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع على أساس سليم قويم، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار عندما تستقر هذه الحقيقة بجوانبها في نفوس الناس، وفي حياتهم، يلتزموا بمنهجه وشريعته ويستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة، حين يخرون لله راكعين ساجدين يذكرونه ولايذكرون أحداً إلا الله وتصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس.

إن استقرار هذه الحقيقة الكبيرة في نفوس المسلمين وتعليق أنظارهم لله وحده، وتعليق قلوبهم برضاه، وأعمالهم بتقواه، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه...في هذه الحياة... فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات، في الآخرة، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله[1].

إن الذين يستنكفون عن عبودية الله، يذلون لعبوديات من هذه الأرض لاتنتهي. يذلون لعبودية الهوى والشهوة، أو عبودية الوهم والخرافة، ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه... ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله.

(1) في ظلال القرآن (2/ 820).

obeikandl.com

المبحث الثالث

محاربة الشرك

ومن شروط التمكين المهمة: محاربة الشرك بجميع أشكاله، وأنواعه، ولذلك على الجماعة المسلمة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى أن تعرف حقيقة الشرك وخطره وأسبابه ودلة بطلانه وأنواعه، وأن تنقي صفها منه بكافة الأساليب الشرعية، ولايمكن للإنسان أن يحذر من الشرك وأن يحذر غيره إلا إذا عرفه وعرف خطره.

ومعرفة الشرك وما يتعلق به له فوائد عديدة:

أحدها: إن الإنسان يمكنه بمعرفة الشرك أن يحذر من الوقوع فيه.

ثانيها: إنه يمكنه أن يحذِّر غيره.

ثالثها: إنه يظهر له بذلك حسن الإسلام والتوحيد، وذلك أنه إذا عرف الشرك وظهر له بطلانه، عرف أن ضده وهو التوحيد أفضل الأعمال، وبضدها تتميز الأشياء، إلى غير ذلك من الفوائد.

ولهذه الأسباب وغيرها فقد اهتم الدعاة الصادقون والعلماء المخلصون والقادة الربانيون ببيان الشرك وأقسامه وأسبابه وخطره وجميع ما يتعلق به، وبينوا أن تحقيق الإيمان الصحيح لا يتم ولا يقبل من صاحبه إلا بترك الشرك والبعد عنه.

يقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ: «ولا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله في جميع إرادته وأقواله وافعاله، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة، وهو أن يصرف نوعاً من العبادة لغير الله تعالى. وتحقيق هذا التوحيد وتمامه أن يدع الشرك الأصغر وهو: كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، ويسير الرياء ونحو ذلك»[1].

---

(1) الفتاوى السعدية للعلامة عبدالرحمن السعدي، ص 13.

أما حقيقة الشرك بالله: «أن يعبد المخلوق كما يعبد الله أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والألوهية»[1].

أما أقسام الشرك فقسمه العلماء إلى نوعين: شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «الشرك نوعان: شرك في ربوبيته تعالى كشرك الثانوية الذين يثبتون خالقاً مع الله، وشرك في ألوهيته، كشرك المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ويشركون بينه وبين المخلوقين، ويسوونهم مع الله في خصائص ألوهيته»[2].

لقد وردت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة في التحذير من الشرك، وبيان خطره، وإنه أعظم ذنب عصي الله به، وإنه لا أضل من فاعله، وإنه مخلد في النار أبداً لانصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء 48].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء 116].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج 31].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر 65].

والأحاديث الواردة في ذم المشركين منها:

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**»[3].

وحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من لقي الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة**»[4].

وحديث أبي بكرة[5] رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**»

---

(1) الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة لعبدالرزاق العباد، ص 178.
(2) الرياض النضرة للسعدي، ص 244.
(3) مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً (1/ 94) رقم 92.
(4) المصدر نفسه، رقم 93.
(5) هو نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو أبو بكرة الثقفي، تدلى إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف في (بكرة) فاشتهر بأبي بكرة وأسلم وأعتقه رسول الله ﷺ يومئذ، وكان من فضلاء الصحابة، وسكن البصرة، توفي بالبصرة سنة 50 هـ. انظر: أسد الغابة (5/ 38)، والإصابة (3/ 542).

ثلاثاً: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور**» وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[1].

إن تفشي الشرك في المجتمعات الإسلامية سبب في ضياعها، وانحرافها عن هدى المولى ﷻ.

فمن أعظم الظلم، وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لرب العالمين، وتسوية المخلوق مع الخلاق العليم.

فالله وحده المتفرد بالعبودية، فهو مالك النفع والضر، الذي ما من نعمة إلا منه، لا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام لجميع وجوه الاعتبارات.

إن الشرك هو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه، وأما بقية الذنوب فإن صاحبها إن مات ولم يتب منها فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

إن الذنوب التي دون الشرك جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التي خص بها أهل الإيمان والتوحيد وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سدَّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات دون التوحيد، ولا تفيده الشدائد والمحن شيئاً.

إن الشرك بالله تمجه وترفضه الفطر السليمة، ولقد بقي البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على التوحيد والهدى، ثم أدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم إبليس وأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتذكروا أحوالهم، فكان هذا باب الشر العظيم.

فلما مات الذين صوروهم لهذا المعنى خلف من بعدهم خلف قلَّ فيهم العلم واستفزهم الشيطان وأغواهم حتى أوقعهم في الشرك ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته، وكمال أخلاقه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف 59]. إلا أنهم عصوه وما آمن معه إلا قليل.

---

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر (1/ 91) رقم 143.

إن الله تعالى خلق الناس على فطرة التوحيد ثم استطاعت الشياطين أن تميل بالناس وتنحرف بهم نحو الوثنية المظلمة، والشرك العظيم قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة 213].

أي إن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم 30].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل 36].

وقال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[2].

وهذه الأدلة الدامغة التي ذكرناها تدل على أن الناس كانوا على التوحيد وأن الشرك طارئ وحادث فيهم.

إن الجماعة المسلمة التي رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، تحرص على تحقيق التوحيد ومحاربة الشرك، وهي تسعى لتحكيم شرع الله، لأنها تعلم علم اليقين أن من شروط التمكين وإقامة دولة الإسلام تحقيق التوحيد، وتهذيبه، وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية والاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع[3]، وتربي الناس على الاستعانة بالله في كافة أمور حياتهم والاستغاثة به والنذر له، والذبح له وحده، سبحانه وتعالى وأن تكون الحاكمية لله رب العالمين.

وهي تحارب شرك القبور وكذلك شرك القوانين الوضعية وتدعو إلى إفراد العبودية لله وحده في جميع شؤون الحياة الإنسانية ولسان حالها ومقالها قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: 162 ـ 163].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (1/ 250).

(2) مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة (4/ 2047) رقم 2658.

(3) انظر: الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص 191.

لذلك لابد من محاربة الشرك ومداخله وألوانه وجميع طرقه لأن الشرك ذلة في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة، ولأن من متطلبات الإيمان ولوازمه محاربة ضده ألا وهو الشرك.

وبعد أن ذكرت الآية الكريمة شروط الاستخلاف والتمكين والأمن أرشدت الآيات التي بعدها إلى كيفية المحافظة على هذا التمكين والأمن وإلى العدة الفعلية للأمة الإسلامية ألا وهي: الاتصال بالله، وتقويم القلب بإقامة الصلاة، والاستعلاء على الشح، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة. وطاعة الرسول ﷺ والرضى بحكمه، وتنفيذ شريعة الله في الصغيرة والكبيرة، وتحقيق المنهج الذي أراده للحياة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال، وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال.

إن الأمة الإسلامية عندما تسير على نهج الله تعالى وتحكم شرعه في الحياة، وترتضيه في كل أمورها... يتحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن. ومامن مرة خالفت عن هذا النهج والطريق القويم إلا تخلفت في ذيل القافلة، وذلت، وطرد دينها من الهيمنة على البسرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها الأعداء.

إن وعد الله لايتبدل ولايتغير إذا أقمنا الشروط، فإذا أردنا تحقيق الوعد فعلينا بتحقيق الشروط ولا أحد أوفى بعهده من الله تعالى[1].

آثار الشرك:

إن الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فرداً أم جماعة، فمن تلك الآثار:

1 ـ إطفاء نور الفطرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172].

وعلى هذا فإن الشرك نقض للميثاق الذي أخذه الله على البشر وهم في عالم الذر، كما أنه انحراف عن الغاية التي خلق الله الجن والإنس من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات 56].

إن الإنسان يستمد من حقيقة التوحيد إشراقته ونوره وسداد أمره، فإذا أشرك بالله تصبح

(1) في ظلال القرآن (4/ 2530).

أعماله كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. وتصبح حاله وأعماله معتمة مظلمة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 39 ـ 40].

2 ـ القضاء على منازع النفس الرفيعة:

إن النفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لاتستغرقها شهوات الحس، ولاتتصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب، إنما تتطلع دائماً إلى المثل العليا والقيم الرفيعة، وإلى الترفع عن الدنس في كل صوره وأشكاله، سواء أكان فاحشة من الفواحش التي حرمها الله، أو ظلماً يقع على الناس، أو موقفاً خسيساً يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة، أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا.

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد في النفس ويغشيها الشرك فإن النفس تنحط فتشغلها الأرض، يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا، والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها، ويكون جهادها صراعاً خسيساً على هذا المتاع الزائل، يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب، القوي يأكل الضعيف، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق... وهو الأمر الذي نراه سائداً في الجاهلية المعاصرة في كل منحى من مناحي الحياة[1]. قال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج 31].

3 ـ القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه في العبودية الذليلة:

إن العزة الحقيقية تستمد من الإيمان بالله وحده قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون 8]. ولكن المشرك لايعرف هذه العزة ولايتذوقها، إنه عبد.. ولكنها عبودية ذليلة، لأنها ليست عبودية لله، الكريم الرحيم، الذي يُعِزُّ عباده بعزته، إنه عبد لبشر مثله يتحكم فيه فيذله، أو عبد لشهواته، شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان... كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعاً وتمكناً وتجبراً في الأرض... ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذي تذل له أعناق الرجال، ويأتي اليوم الذي يقفون فيه موقف الخزي الأكبر

(1) انظر: ركائز الإيمان لمحمد قطب، ص 140، 141.

أمام العزيز الجبار: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: 205 ـ 207].

4 ـ تمزيق وحدة النفس البشرية:

إن الشرك يشتت وحدة النفس البشرية ويمزقها، فيصلي الإنسان ـ إذا صلى ـ لإله، ويبيع ويشتري ويبتغي الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح. ويمارس شهواته باسم إله ثالث يحل له العلاقات غير المشروعة ويزين له الخبائث. وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقربه إلى الله زلفى... وهكذا تتشتت نفسه في محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التي كثيراً مايكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها. وفي النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمنه وطمأنينته[1]: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29].

5 ـ ومن نتائجه إحباط العمل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

هذه بعض الآثار التي تحدث للإنسان الذي يقع في الشرك ولاشك أن تلك الآثار تبعد المجتمع من التمكين الرباني.

(1) انظر: ركائز الإيمان لمحمد قطب ص 144، 145.

المبحث الرابع
تقوى الله عزَّ وجلّ

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ [الأعراف 96].

إن من شروط التمكين المهمة والتي نضيفها إلى المباحث السابقة: تقوى الله عَزَّوَجَلَّ لأن تقوى الله تعالى لها ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة وهذه الثمرات تظهر على الأفراد ومن ثم على الجماعة المسلمة التي تسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه. إن تقوى الله تعالى تجعل بين العبد وبين مايخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

أولاً: ثمرات التقوى العاجلة والآجلة:

1 ـ المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لايحتسب العبد:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق 2 ـ 3].

2 ـ السهولة واليسر في كل أمر:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق 4].

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «واليسر في الأمر غاية مايرجوه إنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حركته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها، ويعيش من هذا، في يسر رَخِي نَدِي حتى يلقى الله»[1].

(1) في ظلال القرآن (6/ 3602).

3 ـ تيسير العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 282].

قال العلامة محمد رشيد رضا: «أي اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم مافيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لاتعلمون ذلك، وهو سبحانه العليم بكل شيء، فإذا شرع شيئاً فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المناسد وجلب المصالح لمن تبع شرعه، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير»[1] لقد تكرر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 282] ثلاث مرات، فالأولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم شأنه سبحانه وتعالى.

4 ـ إطلاق نور البصيرة:

قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال 29]. إن تقوى الله تعالى في الأمور كلها تعطي صاحبها نوراً يفرق به بين الحق والباطل، وبين دقائق الشبهات التي لايعلمهن كثير من الناس وعندما تسيطر تقوى الله على الصف المسلم يصبح يتحرك بفرقان رباني.

5 ـ محبة الله ﷻ ومحبة ملائكته والقبول في الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران 76].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادى في أهل السماء، إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»[2].

6 ـ نصرة الله ﷻ وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]، فهذه المعية هي معية التأييد والنصرة والتسديد وهي معية الله ﷻ لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين وهي تقتضي التأييد والحفظ والإعانة كما قال تعالى لموسى عليه السلام

(1) تفسير المنار (3/ 128).

(2) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله تعالى... (4/ 2030) رقم 2637.

وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه 46].

أما المعية العامة مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء 108].

والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله ﷻ.

7 ـ البركات من السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

قال القاسمي رحمه الله:

«﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، أي: القرى المهلكة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله ورسلهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء وبعضها من الأرض»[1].

ويدل على هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16].

فانظر إلى بركات التقوى، واعلم أن مانحن فيه من قلة البركة ونقص الثمار وكثرة الآفات والأمراض إنما هو نتيجة حتمية لضعف وازع التقوى وكثرة المعاصي كما يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

8 ـ البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: 62 ـ 64].

والبشرى في الحياة الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن

(1) انظر: محاسن التأويل (7/ 221).

النبيّ ﷺ: «**الرؤيا الصالحة من الله**»[1]. وعنه ﷺ: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**»[2].

وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه النَّاس، فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[3]. وقد رأينا من الموفقين في العمل الإسلاميّ ثناء النَّاس على أعمالهم في الدنيا.

9 ـ الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله، الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ماشاء كان، ومالم يشأ لم يكن»[4].

إنه تعليم من الله تعالى للمسلمين في كيفية الاستعانة على أعداء الله وكيدهم.

10 ـ حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9]. . وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعافاً، إلى التقوى في سائر شؤونهم حتى تحفظ أبناءهم ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والآية تشعر بالتهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في آية ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ [الكهف: 82]. .

فإن الغلامين حفظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما[5].

---

(1) البخاري، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (8/ 88) رقم 6986.
(2) البخاري، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (8/ 89) رقم 6990.
(3) مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره (2642/ 166).
(4) تفسير القرآن العظيم (1/ 329).
(5) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (5/ 47).

11 ـ سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة 27].

ولهذا لابد للدعاة العاملين والعلماء الراسخين من استحضار هذه المعاني العظيمة، إن أعمالنا مهما كان حجمها، وتضحياتنا مهما كانت ضخامتها، لاتقبل إلا من المتقين؛ لأنهم هم الذين يستشعرون أن كل خير هو من الله وحده.

12 ـ سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: 17 ـ 18].

إن الله تعالى سلَّم أهل الإيمان والتقوى من بين أظهر الكافرين دون أن يمسهم سوء أو أن ينالهم من ذلك ضرر، بسبب إيمانهم وتقواهم لله تعالى.

13 ـ تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار، وعظم الأجر وهو سبب الفوز بدرجة الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق 5].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أي: «يذهب عنهم المحظور، ويجزل لهم الثواب على العمل اليسير»[1].

14 ـ ميراث الجنة، فهم أحق النَّاس بها وأهلها، بل ما أعد الله الجنة إلا لأصحاب هذه الرتبة العلية والجوهرة البهية.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63] فهم الورثة الشرعيون لجنة الله عز وجل.

15 ـ وهم لايذهبون إلى الجنة سيراً على أقدامهم بل يحشرون إليها ركباناً

مع أن الله عز وجل يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعاً لمشقتهم كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق 31].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم 85].

---

(1) تفسير ابن كثير (4/ 382).

16 ـ وهي تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة ومحبة إلى عداوة ومشقة:

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

ومن بركة التقوى أن الله ﷻ ينزع ماقد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: 45 ـ 47].

إن هذه الثمار العظيمة عندما تمس شغاف قلوب العاملين في الدعوة الإسلامية تضفي على العمل فيضاً ربانياً موصولاً بالله متصل حلقة الدنيا بالآخرة، كما أن الحرص على تقوى الله تعالى يكسب الصف الإسلاميّ صفات رفيعة وأخلاقاً حميدة، ومكارم نفيسة تجعله أهلاً لتمكين شرع الله على يديه، ومن أهم هذه الصفات التي تجعل الصف المسلم متماسكاً في حركته الدؤوبة نحو تحكيم شرع الله ما يأتي:

ثانياً: صفات المتقين:

1 ـ الصدق، فهم أصدق النّاس إيماناً، وأصدقهم أقوالاً وأعمالاً وهم الذين صدَّقوا المرسلين قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

قال القاسمي ـ رحمه الله ـ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال، وفيه إشعار بأنه من لم يفعل أفعالهم لم يصدق في دعوى الإيمان: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل، وتكرير الإشارة لزيادة تنويه بشأنهم وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم[1] وقد رغب النبيّ ﷺ في هذه الخصلة النبيلة والرتبة الجليلة فقال: ﷺ «**ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»[2].

2 ـ ومن صفاتهم، أنهم يعظمون شعائر الله ﷻ: قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

---

(1) انظر: تفسير القاسمي (3/ 54).

(2) البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (7/ 124).

إن المتقين يعظمون طاعة الله وأمره فيدفعهم ذلك إلى طاعته، ويعظمون كذلك مانهى الله عنه فيدفعهم ذلك عن معصيته.

3 ـ ويتحرون العدل ويحكمون به، ولايحملنهم بغض أحد على تركه قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

وفى الآية تعليم وإرشاد إلى وجوب العدل مع الكفار، الذين هم أعداء الله، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه.

4 ـ يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

فلاشك أن من صفات المتقين أنهم ينتهجون منهج الصحابة ﷺ، لأنهم أولى النَّاس بهذه الصفة التي أمرنا الله أن نكون مع أهلها، فقد شهد الله لهم بالصدق، وشهد لهم رسوله ﷺ، فلايجوز لأحد أن يلمزهم بشيء، أو يتهمهم بما برَّأهم الله ﷻ منه ورسوله ﷺ، فالصحابة كلهم عدول، وظهرت فيهم من علامات الصدق والإيمان واليقين مايجعل العاقل يقطع بتعديلهم، فمن تقوى الله ﷻ موالاتهم، ومحبتهم، ونصرتهم، والاحتجاج بإجماعهم، وفهم الكتاب والسُّنَّة على منهجهم وطريقتهم، وبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم[1].

5 ـ يَدَعون مالا بأس به حذراً مما به بأس، ويتقون الشبهات. إن المتقين يتورعون عن الشبهات وعما يرتابون فيه مما ليس حلالاً بيناً، وذلك أدعى أن يتورعوا عن الحرام البيِّن، ومن اجترأ على الشبهة اجترأ كذلك على الحرام.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من النَّاس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**»[2].

ولابد من التنبه لأمر مهم وهو: أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأما من يقع في انتهاك المحرمات

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (8/ 289).
(2) البخاري، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه (1/ 22) رقم 22.

الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبهات فإنه لايحتمل ذلك بل ينكر عليه، كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هما ريحانتاي من الدنيا**»[1].

6 - إنهم يعفون ويصفحون: قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة 237].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: 40].

فأخبر ﷻ أن من اتصف بهذه الصفة فأجره في ذلك على الله ﷻ كما رغبهم الله ﷻ في مغفرته إذا فعلوا ذلك فقال ﷻ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: 22].

وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

فالإحسان وصف من أوصاف المتقين، ولم يعطفه على ماسبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة: تمييزاً له بكونه محبوباً عند الله تعالى[2].

7 - ومن صفاتهم أنهم غير معصومين من الخطايا إلا من عصمه الله ﷻ من الأنبياء غير أنهم لا يقترفون الكبائر، ولا يصرون على الصغائر، بل كلما وقعوا في صغيرة رجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف 201].

شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا، وإن زلوا تابوا وأنابوا[3].

إن هذه الصفات عندما تتغلغل في نفوس الدعاة والعلماء وأبناء المسلمين تكون الأمة المسلمة جديرة بنصر الله وتوفيقه، وبهذا نكون قد فصلنا أهم شروط التمكين المتمثلة في الإيمان بالله والعمل الصالح، والعبادة، ومحاربة الشرك وتقوى الله ﷻ.

---

(1) البخاري، فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين (4/ 261).
(2) انظر: تفسير المنار (4/ 134، 135).
(3) المصدر نفسه، (9/ 550).